المتنبّي
خواطر في ذكراه الألفيّة

محمّد أحمد خلف الله

للمتنبي في شعره عن شعره رؤى و احلام .

رؤى تنبت من رغبته الجارفة في ان يكون الشاعر المبدع الخلاق الذي يعبر عن وجوده، ووجود الآخرين معه ، ووجود الطبيعة خارجه ، في مجتمع لا يزال يؤمن بالشعر ويرى فيه قمة المجد الادبي للامة العربية . واحلام تنبت من التطلع الى المجد الذي يحققه مثل هذا الشاعر لنفسه ولأمته ، ومن المكانة التي يمكن ان تتحقق له في المجتمع الذي يحب الشعر ويكلف به ، ومن المنزلة التي يمكن ان تكون له عند الممدوحين من الولاة والوزراء ومن الاعيان والامراء ، او تكون له عند نقاد الادب وشراحه .

والعمل الشعري الذي يحقق لصاحبه هذه الرؤى وهذه الاحلام هو في عرف المتنبي الذي يقوم على دعامتين هامتين : المضمون الذي ينبثق عن الفكر البشري او عن المشاعر الانسانية الاصيلة ، والذي يوفر للشعر زادا ثقافيا عميقا ويبث فيه الحيوية ويبعث فيه الحركة ؛ والاطار الذي يحقق له الجمال الفني ويكسبه الجلال والروعة .

وقد كان المتنبي يرى انه يحقق في شعره الامرين معا . يقول متحدثا عن شعره الذي تقدم به الى احد الممدوحين :

« حملت اليه من لساني حديقة سقاها الحجى سقي الرياض السحائب »

ويقول مادحا :

« دعاني اليك العلم والحلم والحجى وهذا الكلام النظم والنائل النثر
وما قلت من شعر تكاد بيوته اذا كتبت يبيض من نورها الحبر
كأن المعاني في فصاحة لفظها نجوم الثريا او خلائقك الزهر »

واعتماد المتنبي على هاتين الدعامتين ، المضمون والاطار ، في العمل الشعري هو الذي جعله يرى ان شعره اجمل الشعر — لا يستثنى من ذلك شعرا، حتى ولا الشعر الجاهلي الذي قدم النماذج الفنية الرائعة ووضع التقاليد التي سار عليها الشعراء من بعده في بناء القصيدة . كما جعله يرى انه افضل الشعراء ، لانه الذي يسبق الناس الى القول ويهدي الشعراء سبل العمل الفني العظيم :

« لا تجسر الفصحاء تنشد ههنا بيتا ولكني الهزبر الباسل

ما نال اهل الجاهلية كلهم شعري ولا سمعت بسحري بابل »
« انا السابق الهادي الى ما اقوله اذ القول قبل القائلين مقول »

ويبدو لي ان ابا الطيب قد حاول استكشاف نفسه ، كشاعر ، في المجتمعات التي عاش فيها ، فكشفت له عن شاعر يملك القدرات والامكانيات التالية :

اولا ، يملك من وسائل التعبير الفنية ما يمكّنه من التعبير عن الحياة في المجتمع الذي يعيش فيه ، وما يمكّنه من ايصال تجربته الشعرية الى انفس الذين يقرأون شعره او يستمعون الى انشاده فينفعلون معه ، ويأخذون انفسهم بتكرير الحانه وترديد انغامه والترنم باشعاره — ايمانا منهم بانهم انما يعبرون بذلك عن وجودهم ، وانهم انما يلبون بذلك احتياجاتهم الروحية ويشبعون بذلك رغباتهم العاطفية .

ثانيا ، اوتي من قوة الخيال ، ومن البراعة في ابتكار المعاني ، ما يمكّنه من ان يسمو بشعره الى المستوى الذي يأخذ بالالباب ، والذي يقف النقاد وشراح الادب امامه حيارى لا يدرون مراميه . ومن هنا يذهبون مذاهب شتى في التفسير والشرح ، ويختلفون فيما بينهم في تقييم الشعر ، ويظلون على هذه الحالات آمادا طوالا .

ثالثا ، ان شعره وسيلة من وسائل الاعلام القوية الفعالة التي يبلغ تأثيرها الى كل مكان في الارض او في السماء ، والتي يعجز غيره من الشعراء عن مباراته بها في هذا الميدان . انه يكتب الخلد للناس بينما لا يحدث غيره الا الضجيج وقعقعة الاصوات .

رابعا ، انه لكل ما تقدم يستحق منزلة فوق ما يستحق غيره من الشعراء ، ويستحق شعره تقديرا اعلى مما يستحق غيره . ومن هنا رأى ان ينشد الشعر جالسا لا واقفا كما يفعل غيره ، ورأى ان يشرك نفسه مع الممدوحين في صفات المدح والثناء ، ورأى ان يترفع فلا يقول الشعر — مادحا او هاجيا — في كل انسان وانما يتخير الممدوحين والمهجوين على حد سواء :

« ان هذا الشعر في الشعر ملك سار فهو الشمس والدنيا فلك
عدل الرحمن فيه بيننا فقضى باللفظ لي والحمد لك »
« شاعر اللفظ خدنه شاعر المجد كلانا رب المعاني الدقاق »

وجاءت الايام مصدقة نبوءات المتنبي محققة ما صور في شعره عن شعره من رؤى واحلام . فلقد كان النقاد وشراح الادب ، وما يزالون ، في اختلاف من امر شعر هذا الشاعر من حيث شرحه وتفسيره ، ومن حيث بيان مقاصده ومراميه ، ومن حيث تقييمه — ويستوي في ذلك القدامى والمحدثون ، والشرقيون والمستشرقون . ولقد كان مؤرخو الادب ، وما يزالون ، في حيرة من امره ، فهل تنبأ او لم يتنبأ ؟ وهل كان كريما او بخيلا ، شجاعا او

جبانا ؟ وماذا كانت علاقته بالممدوحين والمهجوين ؟ وما حظه من الدين ومن الفلسفة؟ الخ. وقد كان الشعراء ، وما يزالون ، يختلفون حظا ونصيبا في الاخذ عنه واعتباره القدوة الحسنة . اما الذين كتب لهم الخلود فما يزالون ينعمون بهذا الخلود .

وقد يطول بنا الكلام ويضيق بنا المقام لو اخذنا نتتبع كل حالة من هذه الحالات في مظانها من كتب النقد الادبي ، وكتب التاريخ الادبي ، ودواوين الشعراء ، وشعر هذا الشاعر ، والشروح العديدة التي شرح بها ديوانه . ومن هنا آثرنا ان نكتفي في هذا المقام بتأكيدنا للحقائق التالية :

اولا ، لم يحدث في تاريخ الادب العربي ان اهتم النقاد والشراح والمؤرخون للادب بديوان شعر مثل اهتمامهم بديوان المتنبي . ولم يحدث ابدا ان كانت هناك حركة نقدية وسعت من آفاق النقد العربي وعمقته ومددت من ابعاده مثل تلك الحركة التي قامت حول المتنبي وشعر المتنبي. يقول الثعالبي : « فليست اليوم مجالس الدرس باعمر بشعر ابي الطيب من مجالس الانس ، ولا اقلام كتاب الرسائل اجرى به من السن الخطباء في المحافل ، ولا لحون المغنين والقوالين اشغل به من كتب المؤلفين والمصنفين. وقد الفت الكتب في تفسيره وحل مشكله وعويصه ، وكثرت الدفاتر على ذكر جيده و رديئه ، وتكلم الافاضل في الوساطة بينه وبين خصومه ». ويقول الواحدي: « دعاني الى تصنيف هذا الكتاب اجتماع اهل العصر قاطبة على هذا الديوان وشغفهم بحفظه و روايته ، والوقوف على معانيه ، وانقطاعهم عن جمع اشعار العرب جاهليها واسلاميها الى هذا الشعر واقتصارهم عليه في تمثلهم ومحاضراتهم وخطبهم ومخاطباتهم حتى كأن الاشعار كلها قد فقدت » . ويقول صاحب « الصبح المنبي » : « ولم يسمع بديوان شعر في الجاهلية ولا في الاسلام شُرح مثل الشروح الكثيرة لديوان المتنبي ، ولا تداول في السنة الادباء في نظم ونثر اكثر من شعر المتنبي » . اما ابن رشيق فيقول كلمة جامعة : « ثم جاء المتنبي فملأ الدنيا وشغل الناس ».

ثانيا ، لم يحدث في تاريخ الشعر العربي ان اقبل الشعراء على نماذج فنية يحتذونها في عمل الشعر مثل اقبالهم على نماذج المتنبي ، ولم يعارض الشعراء – قدامى ومحدثون – قصائد شاعر مثل معارضتهم لقصائد المتنبي وتأثرهم بها. وقد يكفي في هذا المقام ان نضرب المثل بشاعرين عظيمين لهما قدرهما في التاريخ الادبي للامة العربية : احدهما من القدامى هو ابو العلاء المعري ، والثاني من المحدثين هو امير الشعراء احمد شوقي .

اما ابو العلاء فقد كان معجبا بالمتنبي الى ابعد حد ، وآيات اعجابه تظهر في شرحه لهذا الديوان مرتين، وتسميته احد الشرحين « معجز احمد »: وليس لهذه التسمية من معنى الا ان ابا العلاء قد شعر حقا بان المتنبي يأتي في شعره بالمعجز. وتظهر في ما رواه الشيخ يوسف البديعي في كتابه « الصبح المنبي » من قوله : « وكان المعري – على جلال شأنه وعظيم

قدره — يذكر الشعراء باسماءهم المجردة، فاذا وصل الى المتنبي لم يذكره باسمه وانما يذكره بلقب الشاعر تعظيما له واكبارا » . وليس معنى ذلك عندنا الا ان ابا العلاء كان يرى ان الذي يستحق لقب « الشاعر » من بين شعراء العربية انما هو المتنبي. وتظهر ايضا في ما التفت اليه النقاد المحدثون — وبخاصة الدكتور طه حسين في كتابه « مع المتنبي » — من ان بذور الفلسفة العلائية الحزينة ، وبذور الشك والتشاؤم العلائي ، انما نبتت من تأثر ابي العلاء بابي الطيب او من اثر المتنبي في فيلسوف المعرة .

واما شوقي فقد تأثر هو الآخر بالمتنبي واتخذ منه قدوة واماما .

وشوقي لم يكن بدعا في ذلك ، فشعراء النهضة جميعا قد اتخذوا من المتنبي قدوة واماما ، ذلك لانهم قد ارادوا ان يردوا للشعر العربي صحته وسلامته ، وان يخرجوا به من ميدان اللحن الركاكة الى ميدان الفصاحة ، ولم يجدوا امامهم القدوة كما وجدوها في شعراء العصر العباسي وعلى رأسهم المتنبي .

عارض شوقي المتنبي، واراد بالمعارضة استخدام كل طاقاته الشعرية في الارتفاع بالشعر الى مستواه الرفيع . والمثل الذي يمكن ان نسوقه في هذا المقام هو مرثية شوقي لوالدته ، تلك التي عارض فيها قصيدة المتنبي في رثاء جدته . القصيدتان متشابهتان في الدافع اليهما وفي الظروف التي كانت تحيط بكل من الشاعرين وبكل من المتوفيتين. قصيدة المتنبي يرثي بها جدته التي ماتت سرورا برسالة تلقتها منه ينبئها بقدومه ورجوعه اليها بعد ان كانت قد يئست من العودة. فقبلت الرسالة وفرحت بها فرحا غلبها على نفسها فاصابتها الحمى واودت بها. وقصيدة شوقي يرثي بها والدته التي قضت سنوات الحرب الاولى حزينة موجعة القلب، الما على فراق ابنها المنفي في بلاد الاندلس . فلما انتهت الحرب وشاع في مصر ان الغرباء بما فيهم شوقي سيعودون الى ارض الوطن فرحت فرحا ضاق به جسمها فحمت وماتت من فرط ابتهاجها .

تأثر شوقي بالمتنبي في هذه القصيدة لا شك فيه ، واعتماد شوقي على الفاظ ابي الطيب ومعانيه واضح كل الوضوح ، والذي يفرق بين الشاعرين هو طبيعة كل منهما ومزاجه الشخصي . فالمتنبي جلد صبور حريص على منازلة الدهر ومقاومة الايام ، وشوقي وادع حنون اقرب الى الجزع والهلع منه الى التماسك ، مستسلم للمقادير ناقم على الحرب .وعندي ان شوقي لم يبلغ ابدا مبلغ المتنبي في تصويره لآثار الحزن والفجيعة في نفسه .

ثالثا ، لم يحدث ان اهتم المستشرقون بشاعر عربي مثل اهتمامهم بالمتنبي. ولم يكن ذلك الا لانهم وجدوا فيه الشاعر الذي يسمعهم اصداء نفسه ويكشف لهم عن خبايا فؤاده ، ولانهم وجدوا فيه ايضا الشاعر الذي يصور لهم حياة الانسان بما فيها من قسوة ومرارة ،

واخلاق الانسان وعواطفه وعلاقته بالجماعة التي يعيش فيها ، وما يتصل بذلك كله من وقفات مع الحياة والموت ، ومع القوة والضعف ، ومع اللذة والالم . وليس من شك في ان هذه النغمات ترضي المستشرقين وتطربهم .

رابعا، ان الخلود كان وما يزال نصيب اولئك الذين قصد المتنبي ان يكتب لهم الخلود عن طريق شعره الخالد . فسيف الدولة بن حمدان الذي صوره المتنبي لا يزال حيا في انفس الناس . وكافور الاخشيدي الذي هجاه لا يعرف الناس له حياة اقوى من تلك التي نفث فيها المتنبي من روحه . فالناس يحفظون عن ظهر قلب الكثير من الابيات ، ويجدون متعة ذهنية في تصور ما فيها من سخرية :

« وتعجبني رجلاك في النعل انني ... رأيتك ذا نعل اذا كنت حافيا
وانك لا تدري ألونك اسود ... من الجهل ، ام قد صار ابيض صافيا
ويذكرني تخييط كعبك شقه ... ومشيك في ثوب من الزفت عاريا
ولولا فضول الناس جئتك مادحا ... بما كنت في سري به لك هاجيا
فاصبحت مسرورا بما انا منشد ... وان كان بالانشاد هجوك غاليا
فان كنت لا خيرا افدت فانني ... افدت بلحظي مشغريك الملاهيا
ومثلك يؤتى من بلاد بعيدة ... ليضحك ربات الحداد البواكيا »

والآن ، ما العوامل التي فجرت ينابيع المشاعر الانسانية في نفس المتنبي وجعلته يستغل كل ما يملك من طاقات وامكانيات في سبيل العمل الشعري الخالد والمنزلة الادبية التي حددنا الكثير من معالمها فيما سبق ؟

استطيع ان ادعي – اعتمادا على قراءتي في شعره – ان هذه العوامل هي التالية : اولا، ثقافة عربية اصيلة تبدأ من البداوة وتنتهي الى الحضارة ، وتجمع بين الخبرة البدائية والتجربة العربية والمعارف الانسانية والمذاهب الدينية والنظريات الفلسفية . ثانيا ، ايمان قومي عميق يجعله شديد الحساسية بالعروبة ، متعصبا لها ، ناقما على اعدائها ، مزدريا لهم وساخرا منهم . ثالثا ، احساس انساني دقيق ، وعاطفة انسانية صادقة ، يجعلانه مختلفا عن غيره من الشعراء متميزا عنهم في العمل الشعري من حيث هو تجربة نفسية قبل ان يكون صياغة لفظية . رابعا ، ثورة نفسية هائلة مصدرها ذلك القلق النفسي الذي ينبعث عن التفاوت العظيم بين ما تجري عليه الحياة في المجتمع وما يتصوره هذا الشاعر لحياة افضل لهذا المجتمع .

هذه هي العوامل التي اراها والتي يحسن بي ان آخذ في تحديد الدور الذي لعبه كل منها في ذلك العمل الشعري الخالد .

اولا ، الثقافة .

ثقافة المتنبي واسعة عميقة ، وتنبع من مصادر ثلاثة لكل منها اثره الواضح في شعره. ولقد كان المصدر الاول نفس المصدر الذي يأخذ عنه كل مولود يولد ، وهو البيئة – البيئة التي يمتص منها كل انسان القضايا الثقافية العامة من لغة ودين ، ومن تقاليد وعادات، ومن قيم اجتماعية وثقافية مختلفة . وبيئة المتنبي لم تكن واحدة وانما كانت بيئات مختلفة ، فيها البدوي وفيها الحضري . فقد عاش في البادية وعاش في المدينة ، وتنقل فيما بين حلب ودمشق والقاهرة وبغداد .

واثر هذا المصدر انما ينبت من اثر البادية في نفس ابي الطيب ، فقد ظلت القيم البدوية تحكم تصرفاته في كل موقف تقريبا – بل لعلها كانت الوقود الذي يغذي سلوكه العملي وعلاقاته الشخصية. واني لاتصور المتنبي شيخا لقبيلة– شيخا مهيبا جليلا وقورا يترفع عن الدنايا ويتطلع الى الامجاد :

« وغير فؤادي للغواني رمية ... وغير بناني للزجاج ركاب
تركنا لاطراف القنا كل شهوة ... فليس لنا الا بهن لعاب »
« وترى المروة والفتوة والابوة ... في كل مليحة ضراتها
هن الثلاث لمانعاتي لذتي ... في خلوتي ، لا الخوف من تبعاتها »

تخلق المتنبي باخلاق البداوة ، فكان العربي الاصيل الذي يمارس الفروسية ويحب الشجعان ويجد في الصدق والوفاء ، والالفة والمحبة ، والاباء والشمم ، والمروءة ، الصفات التي يجب ان يتغنى بها في الشعر مدحا ، وبضدها ذما وهجاء .

وحتى القيم الجمالية التي تغنى بها المتنبي في شعره كانت قيما بدوية – لقد ظل الرجل مخلصا لبداوته حريصا على قيمها نافرا من الحضارة وقيمها . واعتقد ان ذلك كان سببا من اسباب الفشل في حياته العملية، من حيث انه يتصرف في المدينة بعقلية البدوي الذي يحب ما اعتاد ويكره الجديد مهما يكن مفيدا او جميلا :

« ما اوجه الحضر المستحسنات به ... كأوجه البدويات الرعابيب
حسن الحضارة مجلوب بتطرية ... وفي البداوة حسن غير مجلوب
ابن المعيز من الآرام ناظرة ... وغير ناظرة ، في الحسن والطيب
افدى ظباء فلاة ما عرفن بها ... مضغ الكلام ، ولا صبغ الحواجيب
ولا برزن من الحمام مائلة ... اوراكهن صقيلات العراقيب »

قيم البداوة هي القيم الاصيلة في الحياة العربية ، وكانت من المضامين التي قام عليها العمل الشعري عند المتنبي ، ومن هنا رأى فيها الذين استمعوا الى انشاده اصلا من اصول حياتهم فاحبوها ، واحبوا صورها التعبيرية ووجدوا فيها صدى انفسهم.

اما المصدر الثاني فكان الأخذ عن الكتب والرجال . ولم يقتصر المتنبي في هذا الميدان وانما فاق الاقران وذهب الى الحد الذي جعل منه الانسان المثقف الذي يتحدى شيوخ الادب واللغة ويتفوق عليهم في بعض المواطن .

والمعارف الانسانية التي اكتسبها المتنبي عن هذا المصدر مختلفة الطعوم والالوان ، ويظهر اثرها في شعره اكثر مما يظهر في تصرفه العملي . وليس من شك في ان المتنبي قد فسر الحياة والوجود في عصره تفسيرات استغل فيها كل ما يعرف من علم وفلسفة . وان هذا هو الذي جعل لشعره طعما خاصا واعطاه المضمون الذي ارتفع به عن شعر المعاصرين والسابقين الاولين ، ودفع به الى ان يفخر بشعره على كل هؤلاء .

والاطر الفنية التي نعرفها للمتنبي كانت من غير شك اثرا من آثار ثقافته الادبية واللغوية التي نعتقد انها كانت التهاما لكل ما انتج الشعراء من قبل ، وبخاصة ابي تمام .

وابرز ما يكون اثر الثقافة الجديدة في شعره حين يقول رثاء ، وحين يفسر ظواهر الوجود والفناء او ما بعد الوجود من حياة اخرى او فناء :

« لا بد للانسان من ضجعة ... لا تقلب المضجع عن جنبه
ينسى بها ما كان من عجبه ... وما اذاق الموت من كربه
نحن بنو الموتى فما بالنا ... نعاف ما لا بد من شربه
تبخل ايدينا بارواحنا ... على زمان هي من كسبه
فهذه الارواح من جوه ... وهذه الاجسام من تربه
لو فكر العاشق في منتهى ... حسن الذي يسبيه لم يسبه
لم ير قرن الشمس في شرقه ... فشكت الانفس في غربه
يموت راعي الضأن في جهله ... ميتة جالينوس في طبه »
« تصفو الحياة لجاهل او غافل ... عما مضى فيها وما يتوقع
ولمن يغالط في الحقائق نفسه ... ويسومها طلب المحال فتطمع
اين الذي الهرمان من بنيانه ؟ ... ما قومه ؟ ما يومه ؟ ما المصرع ؟
تتخلف الآثار عن اصحابها ... حينا ويدركها الفناء فتتبع »

واما المصدر الثالث فقد كان الخبرة بالحياة والتجربة للدنيا وللناس . وتجربة ابي الطيب للدنيا وللناس امدته بزاد لا ينفد ، كان منه ذلك التراث الضخم الذي خلفه لنا والذي جرى الكثير منه مجرى الحكمة والمثل . وكشفت عن صورة قاتمة مظلمة يضيع فيها الانسان الخير ويظفر بمطلوبه الانسان الشرير . وهذا الذي دفع المتنبي الى الدعوة الى الصبر والمجالدة والعمل على التغلب على الاحداث . انه لا يخنع ولا يستسلم وانما يكافح حتى يظفر بالنصر . كما كشفت عن اناس جانب الخير فيهم اقل من جانب الشر بكثير . انهم لا

يكتفون بمصائب الحياة وانما يخلقون المشكلات ليزيدوا من مصائب الحياة .

وتجربة ابي الطيب كانت تنتهي به دائما الى ان الحياة العزيزة الكريمة هي الهدف، وان الانسان يجب ان يناضل حتى يظفر بالعزة والكرامة ، ويحقق الاهداف التي لا يكون للحياة طعم اي طعم بدونها :

« عش عزيزا او مت وانت كريم ... بين طعن القنا وخفق البنود
فاطلب العز في لظى ودع ... الذل ولو كان في جنان الخلود »
« واحتمال الاذى ورؤية جانيه ... غذاء تضوى به الاجسام
ذل من يغبط الذليل بعيش ... رب عيش اخف منه الحمام
من يهن يسهل الهوان عليه ... ما لجرح بميت ايلام »

ثانيا ، الايمان القومي .

كان المتنبي قوي الايمان بالعروبة شديد التعصب لها ، وكان يألم ان يرى وطنه نهبا مقسما بين قوم ليسوا من ابنائه، وليسوا في حسه اهلا لان يديروا شؤونه ويتولوا اموره. وكان يرى في الاسلوب الذي يتوصل به هؤلاء الغرباء عن العروبة والوطن العربي الى الحكم والسلطان اذلالا لمقدسات الشعب العربي وغضا من كرامته .

وحساسية المتنبي الشديدة في الميدان القومي هي التي جعلته يجيد في مدحه لسيف الدولة. ونعتقد ان هذه الاجادة لم تكن ابدا لان سيف الدولة يجزل له العطاء، وانما كانت لان سيف الدولة في حسه بطل عربي ، يذود عن الوطن العربي حتى لكأنه وحده الموكل بالدفاع عن العروبة والاسلام :

« ارى المسلمين مع المشركين ... اما العجز واما رهب
وانت مع الله في جانب ... قليل الرقاد كثير التعب
كأنك وحدك وحدته ... ودان البرية بابن واب»

ولغة المتنبي في مدحه لسيف الدولة تكشف عن هذه العلاقة. فقد احب المتنبي سيف الدولة حقا لبطولته واستخدم في مدحه لغة الحب ، ولم يكن ذلك مصادفة وانما كان عن عاطفة صادقة . وآية ذلك عندنا ان المتنبي حين ذهب الى مصر مغضبا ، اخذ يمدح كافورا باسلوب من يكايد سيف الدولة بكافور — اذ لعل هذه المكايدة ان تصلح الامر بين الشاعر والبطل .

ان صورة سيف الدولة لم تطمس ابدا في مخيلة المتنبي ، وانما ظلت حية ، وحيويتها هذه هي التي جعلته يجيد في الكافوريات من حيث انه انما كان يصور في الواقع عواطفه نحو البطل الذي احبه وادخره للعرب والعروبة .

على ان المتنبي نفسه قد صوره المه النفسي من ان ينتهي الامر بالوطن العربي الى ان يكون قسمة بين قوم ليسوا من السادة ، ولا يصلحون ابدا لان يكونوا سادة لان تربيتهم تحول بينهم وبين ذلك :

« وانما الناس بالملوك ومـا تفلـح عرب ملوكهـا عجم
لا ادب عنـدهم ولا حسب ولا عهود لهـم ولا ذمـم
بكـل ارض وطئتهـا امـم ترعى بعبـد كأنهـا غـنم
يستخشن الخـز حـين يلبسه وكان يبرى بظفره القلم »

امر اخير نشير اليه في هذا المقام، هو ان المتنبي كان يفرق بين نوعين من الانتصارات في مدحه لسيف الدولة : انتصاراته على الروم وانتصاراته على القبائل العربية ، وكان له موقف خاص مع كل نوع . لقد كان موقفه مع الروم موقف المحرض الذي يرجو من الله ان يعين سيف الدولة على ابادتهم . اما موقفه مع العرب فكان موقف الذي يطلب من سيف الدولة الصفح مشيرا الى ما بينه وبين القبائل العربية من روابط ومؤملا من سيف الدولة ان يتصرف تصرف البطل العربي الذي يغفر الاساءة لبني جنسه :

«وكيف يتم بأسك في اناس تصيبهم فيؤلمك المصاب
ترفق ايها المولى عليهم فان الرفق بالجاني عتاب»

العروبة نغمة قديمة يطرب العربي عند سماعها . وقد استغل ابو الطيب هذه النغمة احسن استغلال في زمن كان غير العرب قد اخذوا على العرب الطريق وسدوا عليهم المنافذ.

لقد كان القرن الرابع الهجري القرن الذي بدا فيه سلطان العرب ضعيفا وسلطان غيرهم من الاعاجم والمماليك قويا عنيفا . بيدهم كل شيء وليس بيد العرب اي شيء. ومن هنا تغنى المتنبي بالامجاد العربية في شخص سيف الدولة. وتغنى غناء حزينا يلذ السامعين دون ان يطربهم، ويعبر عن حالاتهم الحزينة الباكية ان صار الامر في غير ايديهم حين نظر حواليه فلم يجد سادة الا الذين لا يصلحون ابدا ان يكونوا سادة .

ثالثا ، الحس الدقيق والعاطفة الصادقة .

ان المتنبي من شعرائنا القلائل الذين عبروا عن وجودهم ووجود امتهم في صراحة تامة ، ومن هنا كان شعره شعرا صادقا وكان هو شاعرا اصيلا . وهو من شعرائنا القلائل الذين ملكوا حسا دقيقا يميز بين المرئيات والمسموعات والمحسوسات جميعها مهما تدق وتخفى على غيره، ومن هنا كان تفوقه وامتيازه .

لقد كانت المحسوسات عنده الرصيد الهائل الذي يمده بما يشاء من صور حين يعوزه التعبير عن احاسيسه ومشاعره ، وهي صور حية ناطقة يراها كل انسان ولا يشعر بها او

يختزنها كل انسان. ان الشعراء وحدهم هم الذين يلتقطون من الحياة ما يدق ويخفى على غيرهم.

واذا كان حديث المتنبي عن شِعب بوّان قد اطرب الجميع فاني انما اطرب لشيء آخر يحتفظ فيه المتنبي ببداوته وعروبته – وذلك هو احاديثه عن الخيل .

لقد كان المتنبي دقيق الحس في كل ما يصدر عن الخيل التي يعلو ظهرها ويسبح بها في الصحاري والقفار . يسمع وقع اقدامها ، ويرى آثار ارجلها وحوافرها على الرمال ، ويناجيها مناجاة الصديق للصديق ، ويعرف عنها انها الحيوان الذي يألفه ولا يستغني عنه ، لا لحاجته اليه وانما لالفه اياه . ان بينهما عواطف صادقة لا تأتي عليها الايام :

« وجردا مددنا بين آذانها القنا ... فبتن خفافا يتبعن العواليا
تماشي بايد كلما وافت الصفا ... نقشن بها صدر البزاة حوافيا
وتنظر من سود صوادق في الدجى ... يرين بعيدات الشخوص كما هيا
وتنصب للجرس الخفي سوامعا ... يخلن مناجاة الضمير تناديا
تجاذب فرسان الصباح اعنة ... كأن على الاعناق منها افاعيا
بعزم يسير الجسم في السرج راكبا ... به ويسير القلب في الجسم ماشيا »
« ويوم كليل العاشقين كمنته ... اراقب فيه الشمس ايان تغرب
وعيني الى اذني اغر كأنه ... من الليل باق بين عينيه كوكب
له فضلة عن جسمه في اهابه ... تجيء على صدر رحيب وتذهب
شققت به الظلماء ادنى عنانه ... فيطغى وارخيه مرارا فيلعب
واصرع اي الوحش قفيته به ... وانزل عنه مثله حين اركب
وما الخيل الا كالصديق ، قليلة ... وان كثرت في عين من لا يجرب
اذا لم تشاهد غير حسن شياتها ... واعضائها فالحسن عنك مغيب »

رابعا ، الثورة النفسية .

كان المتنبي يطلب المجد ، وكان المجد عنده اول الامر في الولاية يتولاها ، وكان الذي دفعه الى ذلك امران : الاول منهما التاريخ الادبي للامة العربية في عصر المتنبي وقبل عصره ، فقد دل هذا التاريخ على ان الادباء يصلون الى مراتب الوزارة – وفي عصر ابي الطيب المهلبي والصاحب بن عباد . والثاني منهما هذه الثورات التي كانت تقوم وينتهي بها الامر على ان يتولى امور العرب اناس لا يستحقون عند المتنبي هذه الولاية ، وليس ذلك الا لانهم من غير العرب ، ولانهم من غير الاحرار ، ولان تربيتهم لا تؤهلهم لشيء ، فضلا عن ان يكون هذا الشيء ولاية .

ولقد خبر المتنبي الامرين فقام بالثورة العملية التي فشلت ولم تحقق له اهدافه والتي

انتهت به الى السجن ووضع رجليه في قيود من حديد ، فانصرف عن هذه الثورة العملية واخذ نفسه بتحقيق هذا الهدف عن طريق المنحة والعطاء وطالب كافور بذلك والحف بالطلب وانتهى به الامر الى اليأس وخيبة الامل .

لكن نفس ابي الطيب لم تهدأ ولم تستسلم وظلت ابدا ثائرة، ووجدت في الشعر المتنفس الوحيد لهذه الثورة . فجاء شعره صدى لنفسه ، ولكنه كان في الوقت ذاته معبرا عن سير الحياة في المجتمع الذي يعيش فيه، فلم يبتدع ابو الطيب الثورات ولم يبتدع ابو الطيب الوصول الى مراتب الوزارة والولاية عن طريق الادب – وانما كان مسبوقا اليها .

ان عجز ابي الطيب عن تحقيق اهدافه بالطرق والوسائل العملية هو الذي جعله يستعيض عن ذلك بالرؤى والاحلام ، وبتصوير الرؤى والاحلام في شعر يغنيه لنفسه ويطرب به جميع الناس .

ولعل هذا العامل ان يكون ابرز هذه العوامل التي ذكرنا من حيث تأثيرها في شعر المتنبي . فلقد كانت العوامل الاخرى الى جانب هذا العامل في كل موقف من المواقف .

على ان المتنبي لم يكن ابدا راضيا عن نفسه حين يكتفي بقول الشعر . فقد ظل طوال حياته يطلب المجد، وظل عجزه عن تحقيق هذا المجد هو القوة الفعالة الباعثة له على الاجادة في قول الشعر :

« الى كم ذا التخلف والتواني ... وكم هذا التمادي في التمادي
وشغل النفس عن طلب المعالي ... ببيع الشعر في سوق الكساد ؟»

المتنبي شاعر اصيل . واصالته تنبع من انه صور وجوده ووجود الآخرين معه، وعبر عن الحياة في المجتمع الذي كان يعيش فيه .

وهو في تصويره لنفسه اعطانا صورة واضحة عن الانسان وعن مشاعره وعواطفه . واعطانا الى جانب ذلك الوانا من العلاقات التي تكشف عن طبيعة النفس البشرية. واعطانا مجموعة من القيم لا زلنا في حاجة اليها ، من حيث تساعدنا على تفسير الحياة وعلى السير في الحياة .

والحياة في مجتمع المتنبي مظلمة قاتمة ، وظلمتها تجيء من ظلمة نفس الشاعر التي لم تعرف الحياة الناعمة المترفة الوضاءة ، وانما عرفت الخصومة والمغالبة والمقارعة وسفك الدماء ، او التي عرفت المكر والحيلة والمداجاة والنفاق .

ولم يكن المتنبي متجنيا على الحياة والاحياء ، وانما كان دقيق الحس منفعلا لابسط الاشياء عاجزا عن تحقيق الخير والجمال في مجتمع يعج بالخصومات ولا يعرف نظاما يضبط الامور او سلما للقيم عند الاحياء .